الجزء ٧ المجلد ٨

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : تموز سنة ١٩٢٨ م الموافق محرم وصفر ١٣٤٧ سنه هـ

تاريخ نشوء الرجز وتطوره

« أرجوزة ابي النجم العجلي »

لابي النجم العجليّ احد عظماء الرُّجّاز أرجوزة دعاها رؤبة « ام الرجز » نسمع باسمها ولا نرى رسمها . وقد أظفرني بهـا البحث ايام الطلب مكتوبةً على ظهر نسخة من أدب الكاتب لابن قتيبة بخط السيد عمر رمضان الهيتيّ احد اعيان الشعراء في القرن الثالث عشر الهجري ببغداد فكان سروري — يومئذ — بهـا عظيماً فبادرت الى تدوينها في كناشي على نيـة نشرها ... وقد مضى على ذلك زهاء سبع سنين وانا مشغول عنها وعن أمثالها لا أجد في وقتي فراغاً فأعاود النظر فيها وأعلق عليها حتى تفضل أستاذنا العلامة الرئيس الجليل السيد محمد كرد علي فحفزني الى كتابة موضوع يليق نشره في مجلة المجمع العلمي العربي فلم أر شيئاً أجدر بالنشر من هذه الأرجوزة فانهـا طرفة من طرف الأدب العربي الخالد وعلق نفيس يضن به اخو الادب ... وقد بدا لي ان أضع بين يديها بحثاً في تاريخ نشوء الرجز وتطوره ، وتعريفاً لابي النجم : ليكون ذلك أوفى بالغرض الذي أشير به عليّ ، واليك :

* * *

الشعر ممدود من « الآداب الرفيعة » او « الفنون الجميلة » وهو أقدم عهداً لصلته بالشعور والخيال — ولعدم احتياجه الى التعمق في العلم والارتقاء في معارج الحضارة . ويرى الباحثون انه هو والموسيقى صنوان من اصل واحد نشآ معاً ونميا معاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم استقل الشعر عن الموسيقى وظلت الموسيقى محتاجة الى الشعر في الغناء ، غير انهم قد اختلفوا في نشأة أوزانه وقوافيه وأقرب ما يسوغ من آرائهم في العقل ان العرب بدأوا بالنثر المرسل وتوصلوا منه الى السجع ومن السجع الى (الرجز) ومنه الى القصيد. وتفصيل ذلك : ان السنة الطبيعية في الاشياء ان تنشأ ناقصة ثم تتكامل و بسيطة ثم تتركب وكلام البشر لم يخرج في تكوّنه عن هذا الناموس . فقد مرت عليه ثلاثة أدوار تدرج فيها بتداول الزمن من حال الى حال حتى ارتقى الى ما هو عليه اليوم : نشأ بسيطاً ساذجاً ملائماً للفطرة الغضة ثم خطا الى السجع ، وهو قطع يكون في آخر كل فقرتين منها او اكثر قافية واحدة ، ويظن ان متغنياً وقعت له قرينتان متواطئتان على حرف واحد فراقه ذلك ومضى فيه حتى تمت له قطعة وقعت في نفوس سامعيها فقلدوه في النطق بما يماثلها وتغنوا بها — والغناء عادة يورث الكلام لحناً خاصاً ويجريه على تقاطيع وتواقيع خاصة — فكان من ذلك (الرجز) يحدون به الابل الرازحة ، و يذكرون به الأوطان النازحة ، وهم على متون العيس يقذفهم فدفد و يتلقفهم فدفد ، ثم توفرت فيهم ملكة الوزن فتعددت الأوزان بتعدد الألحان وأطالوا القوافي وقصدوا القصيد في كل غرض من الأغراض . . .

إذن فالرجز هو ولد الوزن البكر : ابوه السجع ، وامه الغناء . و يؤيد ذلك قول الرواة : ان الرجز أقدم الشعر . وفي الحق انه لكذلك : لانه أبسط الأوزان وأخفها على اللسان ، وأجراها مع الطبع وأقربها الى الكلام المنثور واولها انطلاقاً على لسان كل من يبدأ بالنظم حتى لقد سماه الادباء « حمار الشعر » لذلك . . .

وكانت العرب تطلق على ما عدا الرجز من الأوزان كلمة (القصيد) يدل على ذلك قول الأغلب العجلي — وقد استنشده المغيرة بن شعبة عامل عمر الفاروق ، رضي الله عنه ، بالكوفة — :

أرجزاً تريد ام قصيدا لقد ظلبت هيناً موجودا

وهي لا تعرف شيئاً يقال له الطويل والمديد والوافر والكامل والبسيط والخفيف والمزج والسريع والمضارع والمجتث . . . الخ وانما تلك أسماء اصطلح عليها أديب العرب الاكبر الخليل بن احمد حينما استقرى الشعر العربي ووضع فن العروض ، وقد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سأله تلميذه الأخفش بعد ذلك[1] : لمَ سميت الطويل طويلاً ؟ قال : لانه طال بتمام أجزائه . قال : فالبسيط ، قال : لانه انبسط عن مدى الطويل وجاء وسطه فعولن وآخره فعلن . قال : فالمديد ، قال : لتمدد سباعيّه حول خماسيّه . قال : فالوافر ، قال : لوفور أجزائه وتداً بوتد . قال : فالكامل ، قال : لان فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره من الشعر . قال : فالهزج ، قال : لانه يضطرب شبه بهزج الصوت . قال : فالرجز ، قال : لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام ! قال : فالرمل ، قال : لانه شبه برمل الحصير لفم بعضه الى بعض . قال : فالسريع ، قال : لانه يسرع على اللسان . قال : فللمنسرح ، قال : لانسراحه وسهولته . قال : فالخفيف ، قال : لانه أخف السباعيات . قال : فالمقتضب ، قال : لانه اقتضب من السريع . قال : فالمضارع ، قال : لانه ضارع المقتضب . قال : فالمجتث ، قال : لانه اجتث اي قُطِعَ من طويل دائرته . قال : فالمتقارب ، قال : لتقارب أجزائه لانها خماسية كلها يشبه بعضها بعضاً .

وللرواة في ان اول من قال الرجز اقوال متضاربة لا يقرها العقل . فهم يقولون : اول من قاله مضر بن نزار حين سقط من متن الجمل كما نقله عنهم جورجي زيدان وآمن به على علاته[2] ، ثم يعودون فينسبون شيئاً كثيراً من القصيد الى آدم بل الى الملائكة بل الى ابليس والجن .. !

وهذا كما ترى خبط لا يقام له وزن بل هو جدير ان يرمى في سفط السقط او يحشر في جملة الأساطير واحاديث خرافة . والحق الذي لا يمترى فيه ان تعيين اولية الشعر واول الناطقين به امر متعذر لا يستطيع الباحث المحقق ان يقول فيه شيئاً يطمئن اليه ولكن شهادة الحس والوجدان تستطيع ان تقرر ان الرجز هو اول مولود من بحور الشعر العربي دون تعيين زمن او قائل . تقرر شهادة الحس ذلك وتقرره معها حتى ينهض دليل يفندها و يثبت رأياً آخر يقول به ...

---

(١) العمدة م ١ ص ٨٩ . (٢) قال الجاحظ في كتاب الحيوان (ج ١ ص ٨٦) « ... ولم أعب الرواية وانما عبت الايمان بها والتوكيد لمعانيها .. » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والمروي ان العرب لم يقل احدهم من الرجز في اول عهدها الذي تعرض له التاريخ الا البيتين والثلاثة لا يزيد على ذلك الا نادراً ، وان الشعراء اصحاب القصيد ما كانوا ليعتدّوا بالرجاز و يحفلوا بالرجز حتى نبغ الأغلب العجلي على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فطوّله وجعله كالقصيد شيئاً يسيراً ، ثم اتى العجاج ورؤبة وابو النجم ، وهم أمراء الرجز ، فافتنّوا فيه وذهبوا به كل ذهب حتى رفعوا من شأنه وشغفوا النفوس به حباً . عن ابي عبيدة قال[1] : ما زالت الشعراء تقصر بالرجاز حتى قال ابو النجم « الحمد لله العلي الأجلل[2] » وقال العجاج « قد جبر الدين الاله فجبر » وقال رؤبة وقاتم الأعماق خاوي المخترق » فانتصفوا منهم .

وقد رأيت للعلماء قديماً وحديثاً عنايةً بالرجز لا تقل عن عنايتهم بالقصيد فقد دوّنوا أراجيز هؤلاء الفحول واضرابهم وحرصوا عليها حرصهم على أنفس الاعلاق بيد ان عوادي الايام لم تبق على كثير من ذلك ، فليس لدينا اليوم الا ديوان العجاج وقد طبع في فينا سنة ١٨٩٦ م ، وديوان رؤبة بن العجاج ومنه نسخة مخطوطة في المكتبة الخديوية في القاهرة ...

وقد نشط احد أدباء مصر المعاصرين فجمع بعض ما تيسر له في كتيب سماه (أراجيز العرب) وطبع سنة ١٣١٢ هـ ، وقرأت في مجلة الزهراء ان للمستشرق رودلف جاير مجموعةً من أراجيز العجاج ورؤبة وذي الرُّمة وجرير وغيرهم دعاها (مشارف الافاويز) وطبعت في ليبسك سنة ١٩٠٨ م . ولا اعرف غير ذلك .

اما صاحبنا ابو النجم احد الثلاثة الذين انتصفوا للرجاز من الشعراء بلاميته التي نعتها رؤبة «ام الرجز» فلم نجد من مطوّلاته ولا سيما هذه اللامية الا نتفاً في تضاعيف

---

(١) الأغاني (ج ٩ ص ٧٣) ومعاهد التنصيص (ج ١ ص ٨) .

(٢) من الغريب ان الشيخ (احمد رضا) في مقالته (الغريب الفصيح في العامي) المنشورة في مجلة المجمع العلمي (م ٦ ص ٤٣٤) يعزو هذا المطلع الشهير من ارجوزة ابي النجم العجلي الى رؤبة ... ولعله وقف على شيء لا نعلمه ولا علمه ابو الفرج وعبد الرحيم العباسي بل العشرات المئات من العلماء ، وفوق كل ذي علم عليم !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أخباره في كتب الأدب والتاريخ كالأغاني ، والشعر والشعراء ، وطبقات الشعراء ، والموشّح ، وخزانة الأدب ، ومعاهد التنصيص وغيرها ... إذن فمنابتنا بنشر « ام الرجز » التي عقها الزمان ، وأهملها في زوايا النسيان — هي أفضل ما يخدم به « نسب الرجز » وتجاره . وبعد هذا فمن الخير ايضاً ان تعرف شيئاً عن « والد » هذه «الام» وسبب إنتاجه إياها ، والنقمة التي جلبتها عليه ، وبعض عيوبها المعنوية . فان لك في ذلك فائدة ولذة وتسلية كما ستحقق ...

* * *

من هو ابو النجم ؟

ابو النجم هو الفضل بن قدامة من بني عجل بن لجيم من بكر وائل . يعد في الطبقة الاولى من رجاز الاسلام الفحول المقدمين . وكلامه حجة في اللغة . وابو عمرو بن العلاء يفضل نعته على نعت العجاج . والأصمعي يشهد بان رجزه أجود من رجز غيره على مايروي صاحب الأغاني ولكن المرزباني في الموشح يروي عن ابي حاتم انه قال : رأيت الأصمعي يستجيد بعض رجز ابي النجم ويضعّف بعضاً لان له رديئاً كثيراً . قال : وقال لي مرةً في شيء لا يعجبني شاعر اسمه الفضل بن قدامة يعني ابا النجم العجلي . ورآه رؤبة مرةً ينشد :

اذا أصطبحت اربعاً عرفتني ثم تجشمت الذي جشمتني

فأعظمه وقام له عن مكانه وقال : هذا رجّاز العرب . على ان ابا النجم ربما قصّد فأجاد ولم يكن كغيره من الرجاز يعجز عن نظم القصيد : كان يوماً عند عبدالملك ابن مروان ويقال عند سليمان بن عبد الملك ، وعنده جماعة من الشعراء وكان فيهم الفرزدق ، وجارية واقفة على رأس عبدالملك او سليمان تذب عنه ، فقال : من يجيئني بقصيدة يفتخر فيها وصدق في فخره فله هذه الجارية ، فقاموا على ذلك . ثم قالوا : ان ابا النجم يغلبنا بمقطعاته يعنون بالرجز ! قال : فاني لا أقول الا قصيدة . فقال من ليلته همزية روى طرفاً منها ابو عبدالله الجمحي في طبقات الشعراء (ص ٢٢٠) ومطلعها :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

علق الهوى بحبائل الشعثاء والموت بعض حبائل الأهواء

ثم أصبح ودخل عليه ومعه الشعراء فأنشده حتى اذا بلغ الى قوله :

منا الذي ربع الجيوش لصلبه عشرون وهو يُعَدُّ في الاحياء

قال : أشهد ان كنت صادقاً انك لصاحب الجارية . فقال الفرزدق : اما انا فأعرف منهم ستة عشر ومن ولد ولده اربعة كلهم قد ربع . فقال : ولد ولده هم ولده إدفع اليه الجارية يا غلام ! فغلب ابو النجم الشعراء يومئذ .

وجرت بينه وبين العجّاج مراجزة فظهر عليه بها وهزمه ، وذلك ان العجاج خرج محتفلاً عليه جبة خز وعمامة خز على ناقة له وقد أجاد رحلها حتى وقف بالمربد والناس مجتمعون فأنشدهم قوله « قد جبر الدين الاله فجبر » فذكر فيها ربيعة ومجاهم ، فجاء رجل من بكر بن وائل الى ابي النجم وهو في بيته فقال له : انت جالس وهذا العجاج يهجونا بالمربد قد اجتمع عليه الناس ! قال : صف لي حاله وزيه الذي هو فيه ! فوصف له ، فقال : ابغني جملاً طحاناً قد اكثر عليه من الحناء ، فجاء بالجمل اليه فأخذ سراويل له فجعل احدى رجليه فيها وائتزر بالاخرى وركب الجمل ودفع خطامه الى من يقوده فانطلق حتى اتى المربد فلما دنا من العجّاج قال : اخلع خطامه ، فخلعه ، وأنشد : « تذكر القلب وجهلاً ما ذكر » فجعل الجمل يدنو من الناقة يشمها و يتباعد عنه العجاج لئلا يفسد ثيابه ورحله بالقطران حتى اذا بلغ الى قوله « شيطانه أنثى وشيطاني ذكر » تعلق الناس هذا البيت وهرب العجّاج عنه .

* * *

« سبب نظمه ارجوزته اللامية وما جلبته عليه من النقمة والنعمة »

كان ابو النجم كسائر الرجاز والشعراء يفد على الملوك والامراء مسترفداً ومستدرّاً نائلهم وجوائزهم . فمدح العجاج وسأله ان يقطعه وادياً في بلاد بني عجل فكتب له به ، واتصل بعبد الملك بن مروان و بهشام بن عبدالملك فنال منهما خيراً كثيراً . وورد يوماً على هشام في الشعراء فاقترح ان يصفوا له إبلاً فيقيّضوها و يوردوها و يصدروها حتى كأنه ينظر اليها فقال ابوالنجم أرجوزته اللامية مؤملاً ان ينال بها جائزة فاخرة ، فأنشدها إياه حتى اتى الى شطر يصف به الغزالة اي الشمس فقال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وهي على الأفق كعين ... » وأراد ان يقول « الأحول » فتذكر حولة هشام فلم يتم البيت وارتج عليه ، فقال هشام : أجز البيت ، فقال : كعين الأحول وأتم الارجوزة . فأمر بوجء عنقه واخراجه من الرصافة ونفيه . فتوسط له القوم فأقره لكنه عاش مرذولاً يصيب من فضول أطعمة الناس ويأوي الى المساجد ، وهكذا خسر المسكين صفقته وضاع مأمله وعاش عيشة الفقراء شأن اكثر شعراء العرب . ولكن ادبه الذي كان هشام من جملة المشغوفين به كان خير شفيع له عنده ولم يحرم العودة اليه والتفيؤ تحت ظلاله ثانيةً . وذلك ان هشاماً اهتم ليلةً وامسى لقص النفس[1] ، وأراد محدثاً يحدثه ، فقال لخادمه : أبغني محدثاً أعرابياً اهوج شاعراً يروي الشعر . فخرج الخادم الى المسجد فاذا هو بابي النجم فضربه برجله وقال له : قم أجب امير المؤمنين . قال : اني رجل اعرابي غريب . قال : إياك ابغي ، فهل تروي الشعر ؟ قال : نعم واقوله . فأقبل به حتى أدخله القصر وأغلق الباب ، فأيقن ابو النجم بالشر ، ثم مضى به فأدخله على هشام في بيت صغير بينه وبين نسائه ستر رقيق والشمع بين يديه تزهر ، فلما دخل قال له هشام : ابو النجم ؟ قال : نعم يا امير المؤمنين طريدك !! قال : إجلس ! فسأله وقال له : اين كنت تأوي ومن كان ينزلك ؟ فأخبره الخبر . قال : وكيف اجتمعا لك ؟ قال : كنت أتغدى عند هذا وأتعشى عند هذا . قال : واين كنت تبيت ؟ قال : في المسجد حيث وجدني رسولك . قال : ومالك من الولد والمال ؟ قال : اما المال فلا مال لي واما الولد فلي ثلاث بنات وبنيّ يقال له شيبان ! فقال : هل اخرجت من بناتك احداً ؟ قال : نعم زوجت اثنتين وبقيت واحدة تجمز[2] في أبياتنا كأنها نعامة ! قال : وما وصيت به الاولى وكانت تسمى برة — ؟ فقال :

أوصيت من برة قلباً حرا ... بالكلب خيراً والحماة شرا
لا تسأمي ضرباً لها وجرا ... حتى ترى حلو الحياة مرا

(١) لقرست نفسه : غثّت وخبثت . (٢) الجمز : العدو دون الحضر الشديد وفوق العنق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وان كستك ذهبا ودرا والحي عميهم بشر طرا

فضحك هشام وقال : فما قلت للاخرى ؟ قال : قلت :

صبي الحماة وابهتي عليها وان دنت فازدلفي اليها
وأوجعي بالفهر ركبتيها ومرفقيها واضربي جنبيها
وظاهري النذر لها عليها لا تخبر الدهر به ابنتيها

فضحك هشام حتى بدت نواجذه وسقط على قفاه فقال : ويحك ما هذه وصية يعقوب ولده ! فقال : وما انا كيعقوب يا امير المؤمنين . قال : فما قلت للثالثة ؟ قال : قلت :

أوصيك يا ابنتي فاني ذاهب أوصيك ان تحمدك القرائب
والجار والضيف الكريم الساغب لا ترجعي المسكين وهو خائب
ولا تني أظفارك السلاهب منهن في وجه الحماة كاتب

والزوج أن الزوج بئس الصاحب

قال : فكيف قلت لها هذا ولم تتزوج ؟ واي شيء قلت في تأخير تزويجها ؟ قال : قلت فيها :

كأن ظلامة أخت شيبان يتيمة ووالداها حيان
الرأس قمل كله وشبان وليس في السافين الا خيطان

تلك التي ينزع منها الشيطان

فضحك هشام حتى ضحك النساء لضحكه ، وقال للخصي : كم بقي من نفقتك ؟ قال : ثلاثمائة دينار . قال : اعطه إياها ليجعلها في رجل ظلامة مكان الخيطين !

وكانت وفاة ابي النجم آخر دولة بني أمية .

* * *

« ما أخذ عليه من الخطإ المعنوي في لاميته »

قلنا فيما تقدم ان الاصمعي يشهد بان رجز ابي النجم أجود من رجز غيره (على رواية الأغاني) وان المرزباني يروي في الموشح (ص٢١٣) عن ابي حاتم انه قال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رأيت الأصمعي يستجيد بعض رجز ابي النجم ويضعف بعضاً لان له رديئاً كثيراً .
قال وقال لي مرة في شيء : لا يعجبني شاعر اسمه الفضل بن قدامة ...

ومهما يكن في هذين الروايتين ، رواية الاصبهاني ورواية المرزباني من الاضطراب البيّن ، فان ابا النجم من الفحول الذين انتصفوا للرجاز من الشعراء وجعلوا للرجز المقام الاسمى ولرجزه من التأثير ما لشعر أعشى قيس منه . وقد ذكرت له مرة بنت اسمها نفيسة أدركت ولم يخطبها احد وطلب اليه ان يذكرها في الشعر ففعل ووفد الى الشام فلما رجع سمع الزمر والجلبة فقال ماهذا ؟ فقالوا نفيسة تزوجت . وليس ادل من لاميته على شاعريته وامتلاكه زمام الفصاحة واخذه بنواصي المعاني ... بله شهادات زيد وعمرو !

واذا اخذ عليه الأصمعي او غيره بعض الاخطاء فليس ذلك بضائره ولا بمقلل من شأنه . ومن ذا الذي لا يعاب ولا ينتقد ؟

ومن جملة ما اخذوه عليه ما رواه صاحب الموشح (ص٢١٤) عن ابيه قال : جلس هشام بن عبد الملك يوماً في صحن داره وفتح بابها وأذن للناس إذناً عاماً فدخلت العامة فأخذوا مجالسهم من الدار وجلس تجاه وجهه اسود مقنع بكسائه وامر ابا النجم ان ينشد وكان مشغوفاً بشعره فأنشد قصيدته اللامية حتى اذا بلغ هذا الموضع منها وهو يصف ابله بالغزر فذكر الضرع فقال « كالسقاء المسمل » فصاح الاسود أتاك والله بها يا امير المؤمنين نزراً غير غُزُر ، قد استجفت ضروعها ، وذهبت البانها ، حين شبهها بالمسمل . قال : فكيف ينبغي ان يقول ؟ قال كما قلت وأنشده :

كنا اذا عام ألحت أزَمُهْ وجعل المطحون تغلو قيمه
لا يشبع المرضع منه درهمه جادت بمطحون لها لا تأجمه
لا ينفخ البطن ولا يورّمه تطبخها ضروعها وتأدمه

فقال هشام : من انت ويلك ؟ قال انا ابو نعامة مولى بني سعد .

وفي الأغاني (ج٩ ص ٧٨) « قال الاصمعي أخطأ ابو النجم في اشياء أخذت عليه منها قوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهي على عذب رويّ المنهل دحل ابي المرقال خير الأدحل
من نحت عادٍ في الزمان الأول

قال الأصمعي الدحل لا تورده الابل انما تورد الركايا وقد عيب بهذا وعيب بقوله في البيت الذي يليه ان هذا الدحل من نحت عاد . قال والدحلان لا تحفر ولا تنحت انما هي خروق وشعاب في الارض والجبال لا تصيبها الشمس فتبقى فيها المياه وهي هوة في الارض يضيق فمها ثم يتسع فيدخلها ماء السماء » .

هذا ما أخذ عليه في أرجوزته ، وقد طال بنا نفس الكلام ، ولعلك ايضاً قد اشتقت اليها ، فلنكتف بهذا القدر من حديثه وحديثها ، ولنقدمها اليك في الجزء التالي من مجلة المجمع فشأنك وشأنها .

بهجة الأثري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net